كيهودي وزجاجة كونياك

قصة بقلم عوض شعبان

رأيته للمرة الاولى في احدى حانات روما ، يقبض على الكأس بكلتا يديه . كان ثملا تفوح منه رائحة الخمر الكريهة . ولهذا كانت صاحبته الشقراء تدير رأسها عنه كلما اراد ان يفوه بكلمة .

ولا زلت اذكر كيف وقف وسط الصالة وصرخ هاتفا بملء حنجرته :

ـ « في صحتك هذه الكأس يا استير ! »

وترنح وهو يقذف بمحتويات الكأس في جوفه دفعة واحدة . وكاد يقع على الارض من فرط سكره ، لولا ان امسكت به الشقراء التي كانت بمعيته واجلسته على كرسيه امام المقصف . وهز رأسه مرات ، مسدلا عينيه المتورمتين في الكأس ، مغمضا نصف اغماضة . وكان يحك رأسه بنوع من البلاهة . ولم ينس ان يتطلع الى الموجودين من لحظة الى اخرى ، ويلفظ عبارات نابية .

وكان لفظ الرواد قد علا مستنكرين صراخه على ذلك الشكل المزعج واوعز احدهم الى صاحب المشرب ان يقذفه خارجا ، فاحتج هذا على قسوتهم ، زاعما ان زبونه رجل طيب مبدئيا ، وما هذه العربدة الصادرة منه الا لكونه نكب بعائلته ، واخذ يعدد مزاياه :

ـ « لقد حارب في صفوف الانصار ضد الالمان في سبيل ايطاليا .. سي سنيور ! اشترك في تحرير فلورنسة وكالابريا من قوات الدوتشي والفوهرر .. ولعل هذا هو السبب الذي من اجله نال الجنسية الايطالية علاوة على جنسيته البولونية ! انه ميكا .. ميكا شراوزكي ! من اكثر اليهود حبا لاعمال الخير . فقد تبرع مرة بزوج احذية مستعملة لقريب له من فرصوفيا ، وفي مرة اخرى قدم مئة لير ايطالي لارملة في ريعان الشباب ! »

وفجأة وقف السكير وسط الصالة مجددا ، قاطعا على صاحب الحانة حديثه وترنح مليا .

كانت يمناه ممسكة بالكأس . فرفعها الى اعلى صارخا بملء صوته:

ـ « في صحتك هذه الكأس يا استير ! »

ومرة اخرى اعانته الشقراء على الجلوس مكانه ، ليصب عينيه الزرقاوين المرهقتين على الكأس الفارغة ، ويحك رأسه الاشيب ذا الصلعة البراقة .

*

اما المرة الثانية . فكانت في القطار الذاهب الى نابولي ، بعد شهر من مشهد الحانة في روما .

وبحكم تفردنا في قمرة واحدة ، كان من الطبيعي ان نقضي بعض الوقت نتجاذب الحديث . ودفعتني غريزة الفضول الى التحدث في مواضيع سياسية معينة ، لارى وقعها على قسمات وجهه .

كنت اتكلم وهو صامت . وقد حسبني في بادىء الامر اسبانيا ، ولكنه ادرك باني عربي حالما انهالت اتهاماتي عليه تجريحا في مسلكه كيهودي !

ورأيته يقف وينتزع من جيب ردائه المعلق على مشجب في الحاجز الخشبي ، زجاجة كونياك ويشرب منها جرعة ثم يقدمها لي . فاعتذرت شاكرا ، فاحكم سدها واعادها الى جيبه بينما مسح فمه بكم سترته ، وارخى جفنيه ثم رفعهما وتلمظ شفتيه وقال ببرودة :

ـ « اسمع ؟ هل رأيت يهوديا سكيرا غيري ؟ »

ـ « لا ... لانهم مشغولون بجمع المساعدات المالية لاسرائيل ! »

ـ « اسرائيل ! ... انها اسطورة عتيقة ، لقد ابدعتها مخيلات شعرائنا منذ اكثر من خمسين عاما ... اسمع يا ابن العم ؟ اتعلم من هو اعظم شاعر في الدنيا بعد دانيال ؟ انه هرتزل !.. اليس كذلك يا ابن العم ؟ »

قال ذلك وضحك ببلاهة :

ـ « هه ، هه ، هه ... نحن اقرباء ! »

واخذ يتمتم وهو ينهض ليأتي بزجاجة الكونياك من جيب ردائه ثانية . وبدا على وجهه السرور ، عندما قربها من فمه الذي بدأت رائحة الخمر تنبعث منه ، فادرت وجهي عنه . وساعتئذ تذكرت صاحبته الشقراء فسألته عنها . وقال متظاهرا بالاهتمام الكلي :

ـ « تقصد غولدا .. زوجة اخي المتوفي في الحرب ؟ او على الاصح الذي قتله النازيون في فرصوفيا .. هاه ، هاه ... تركتها في روما . انها تربح جيدا في ساحة « اسبانيا » !.. انت تدرك جيدا ما اعني !؟»

ـ « بالطبع . ولكن قل لي : لماذا قتل النازيون اخاك ؟ »

ـ « لانه يهودي ،اولا ! ولاننا معشر اليهود .. ثانيا ، لا ندين بالولاء للوطن الذي نولد فيه ونحيا !... »

ـ « لماذا ؟ »

ـ لاننا يهود !

ثم تنحنح وهز راسه وقال ساخرا :

ـ في الحقيقة ، لا افهم لماذا انا يهودي ؟ لعلني غبي كما يقولون !

وقبل ان يخبيء الزجاجة فيجيب ردائه من جديد ، قدمها الي فاعتذرت ايضا ، فالح متوسلا :

ـ يا ابن العم العزيز ... اشرب نخب استير .. اشرب ارجوك !

فكررت اعتذاري رافضا بلباقة ، وقلب الزجاجة بيديه وتنهد بعمق قبل ان يضعها في جيبه . وانتبهت لحظتئذ الى عينيه اللتين كانتا مغرورقتين بالدمع ، فأيقنت انه ثمل من جديد .

كان ينظر من النافذة الى الحقول الخضراء وهي تتسابق والقطار . وينتزع من فمه ابتسامة فتجيء اقرب الى العبوس . وتعددت زيارات فمه النهم لزجاجة الكونياك حتى تجاوزت الست مرات . ورايته يرمي بقبعته الرمادية على المقعد الشاغر ويحك رأسه الاصلع مشيرا الى الحقول الخضراء من خلال النافذة قائلا :

ـ مثل هذه .. حقول بلادي !

ـ تعني فلسطين ؟.. انها بلادنا نحن وليست بلادكم قط !

فتطلع الي وعيناه نصف مغمضتين ، وترع مرات قبل ان يعلق على قولي :

ـ انا الذي شربت يا ابن العم ، واراك امسيت ثملا ! مالك تهذي ؟ اني احدثك عن بولونيا بلادي .. عن بوزنان ، حيث ولدت . مالي وتلك الارض القاحلة التي تذكرها ، ما اسمها ؟

ـ فلسطين .. وهي ليست قاحلة .

ـ اه .. نفس الاسطورة الخرقاء . ولكنهم اخترعوا لها اسما حديثا يماشي تطور العصر ..

وتثاءب بعد ان تمطى ثم اضاف :

آه ... نفس الاسطورة الحرقاء . اسرائيل ! ايه .. حقا انهـــا لاسطورة قديمة . عمرها اكثر من عشرة اعوام !

وعاد فتناول زجاجته ووقف رافعا ساعده الى فوق ، صارخا كالعادة وعيناه مغرورقتان بالدمع :

ـ في صحتك يا استير !

فاضطررت الى تمثيل دور شفراء الحانة ومساعدته على الجلـــوس ثانية . وعلا صوته بالشتائم وبعبارات بذيئة . وكان يرفع اصبعه ويشير الى الحقول متمتما كمن يهذي :

ـ مثل هذه البراري الجميلة ، كانت بلادي ، ولكن ماجدواها الان مادامت استير الحبيبة لن تتمكن من تنشق هوائها النقي ، ولا من التمرغ على اعشابها الندية ؟!

ومسح انفه بطرف سترته ، وفرك عينيه بكف يده قائلا في شيء من النشيج :

ـ اقسم لك يا ابن العم ، انهم لم يدركوا من تلك المؤامرة شيئا .

فقد انقطعت اخباري عنهم لمدة طويلة . كنت احارب في صفوف الايطاليين الاحرار ، يوم نزوح عائلتي الى تلك الارض القاحلة . لقـــد دبر تلك العملية القذرة « شولتس » الاعرج . هو الذي اغرى عائلتـــي بالسفر مع المهاجرين الى حيفا . كنت احارب في سبيل بولونيا بلادي ! اني ماكنت يوما مثلهم .. انا بولوني ! ولهذا كانوا يصمونني بالبلاهة..

وعندما عدت من الجبال حيث كان الحظ يحالف عملياتنا دائمـــا، ودخلت البيت ولم اجدهم ، اسودت الدنيا في عيني . كنت في كـــل لحظة ، ارى استير امامي ورأسها الدقيق يهتز يمينا وشمالا ، احتجاجا على سفرهم من غير ان يروني . نعم يا سنيور . فالوكالة اللعينة اغرتهم بالسفر الى ارض الميعاد المزيف بعد ان اعتقدوا باني قتلت في احدى المعارك . اراهن على ان « شولتس » القذر اكد لهم ذلك !!

وتناول الزجاجة فافرغ نصفها في جوفه . وحالما تطلع الي بعينيه الباكيتين ، تناولتها من يديه وشربت منها جرعة وقلت ، وهي لا تـزال في يدي ، قابضا عليها بشدة :

ـ ولماذا لم تتبعهم الى حيفا؟

فنظر الي مشدوها . وقطب مابين حاجبيه وحك انفه الكبير ، ثـم اغمض احدى عينيه وفتح الاخرى على مدى اتساعها ، وقال ساخرا بصوته المخنوق :

ـ انا .. الحق بهم الى حيفا ؟

ثم زم شفتيه واغرز بصره في عيني وقال بهمس مسموع ، وقـــد قرب راسه مني :

ـ ولماذا ؟ ماداموا قد غرقوا في البحر قبل ان يصلوها .. نعم ، غرقوا في ظروف غامضة جدا .

واستدار برأسه الى الوراء ، ومد يده الي فتناول الزجاجة مـــن يدي بعنف ، ووقف مترنحا ، رافعا ساعده الى اعلى ، صارخا :

ـ في صحتك يا استير !

فوقفت اود مساعدته على الجلوس . فشدني من سترتي متطلعـــا الي ببلاهة . وقال باسترحام ، سائلا :

ـ اتدري من هي استير ؟

ـ زوجتك ، اليس كذلك ؟

فانتفض وقذف بالزجاجة عبر النافذة مقهقها بهستيريا مفاجئة :

ـ هاه ، هاه ، هاه ، هاه ...

وكتم قهقهته فجأة ، وادنى رأسه مني ، فلم ادر وجهي عنه هـــذه المرة . وسمعته يقول بكل هدوء ، واضعا اصبعه على فمه :

ـ استير ، هي ابنتي الصغيرة !

عوض شعبان

العينان النعش

روحي تشتاق الموتَ على أجنحة العينين ،
فجدار الصمت أناخ على قلبي
طيري يا أجنحة العينين الى الغيب
ضمِّي روحي .. لتمدَّ الى الموت بدن
فتحسَّ به شوقا ،
وتنام على شرفات مسالكه أفقا

✶

فالليل ربيع ينضح احلامي ملحا
صدري بحر دون شراع ،
وربيع الليل شراع يقتات شعاعي ،
أمياه البحر سهاد تعشب في قلبي جرحا ؟
شدي يا اجنحة العينين على روحي ،
طيري ! فلحون ربوعك تسبيحي

✶

أجنحة العينين عليك الموت ربيع
فأشيعي في روحي دفأه ،
وانيري في دربي وطأه
نعش حنان انت ! فهل يستسقي منك نجيع
بك موتي حب ملتهب النور
طيري حبا .. فأنا انزاح عن السور

✶

وسئمت الليل ربيعا ، انضح احلامي ملحا
صدري صار شراعا
فبأجنحة العينين يمد له الموت شعاعا ،
ومجاذيفا من أهداب جرحى
نعش حنان يسقى الموت لجوعي :
اجنحة العينين عليها الموت ربيعي !

بغداد **خالد علي مصطفى**
من جمعية الكتاب والمؤلفين العراقيين